

ظاهرة الحزن في شعر سعد العوفي ديوان (البلبل الأسير) أنموذجاً  
دراسة في البواعث النفسية والسمات الفنية

The Phenomenon of Sadness in Saad Al-Outfi's poetry (Al-Bulbul Al-Aseer) as a Model A Study on Psychological Motives and Artistic Features

[10.35781/1637-000-0111-006](https://doi.org/10.35781/1637-000-0111-006)

د. عبدالرحمن بن مناور سلطان الحربي\*

\*الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية

كلية التربية والآداب-جامعة تبوك

### الملخص

الحزن في الديوان من خلال لغة الحزن، والحديث عن أسلوب الشاعر، واستدعائه للنصوص الدينية، وتوظيفه لعناوين القصائد. وانتهيت من ذلك إلى الخاتمة وفيها خلاصة البحث، وأهم النتائج التي توصل إليها الباحث، ومن أبرزها: تعدد بواعث الحزن في الديوان نتيجة لعوامل سياسية، واجتماعية، وذاتية، واتسام لغة الشاعر بالسهولة والقرب، واتصالها بمعجم تراثي يقوم على جزالة اللفظ وقوة الجرس.

الكلمات المفتاحية: ظاهرة الحزن، ديوان البلبل الأسير، البواعث النفسية، السمات النفسية.

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز ظاهرة الحزن في ديوان (البلبل الأسير) من خلال استكشاف البواعث النفسية والسمات الفنية، والربط بينهما. وسعيًا لتحقيق هذا الأهداف أقيمت البحث على المنهج الوصفي التحليلي مع الاستعانة بالمنهج النفسي في الكشف عن بواعث الحزن، دون أن أغفل المنهج السيميائي في معالجة توظيف عناوين القصائد. وجاءت الدراسة مقسمة إلى مقدمة، وتمهيد، وفصلين، ففي الفصل الأول تناولت بواعث الحزن في ديوان البلبل الأسير، وهي بواعث سياسية واجتماعية وثقافية، بالإضافة إلى البواعث الذاتية، أما الفصل الثاني فقد عالجت فيه آليات التعبير عن

## The Phenomenon of Sadness in Saad Al-Outfi's poetry (Al-Bulbul Al-Aseer) as a Model A Study on Psychological Motives and Artistic Features

Dr/Abdulrahman Munawir Sultan Al Harbi\*

\*Assistant Professor in the Arabic Language Department  
College of Education and Arts University of Tabuk

### Abstract

This study aims to highlight the phenomenon of sadness in the poetry collection Al-Bulbul Al-Aseer by exploring its psychological motives and artistic features, establishing a connection between the two. To achieve these objectives, the research adopts a descriptive-analytical approach while incorporating psychological analysis to uncover the motives of sadness. Additionally, the semiotic method is employed to analyze the poet's use of poem titles .

The study is divided into an introduction, a prelude, and two chapters. The first chapter addresses the motives of sadness in Al-Bulbul Al-Aseer, which include political, social, cultural, and personal factors. The second chapter examines the mechanisms through which sadness is

expressed in the collection, focusing on the language of sadness, the poet's style, references to religious texts, and the use of poem titles .

The study concludes with a summary of the research findings, the most significant of which include the multiplicity of sadness motives in the collection due to political, social, and personal factors. Furthermore, the poet's language is characterized by simplicity and accessibility, and its connection to a traditional lexicon characterized by the eloquence of expression and the resonance of internal rhythm .

### Keywords:

The phenomenon of sadness, Al-Bulbul Al-Aseer, psychological motives, artistic features

## المقدمة

الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير،  
والصلاة والسلام على أشرف خلقه وخاتم رسله، وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعد :

يعدّ الحزن محوراً أساسياً في التجربة الإنسانية التي تعبر عن طبيعة الحياة وتقلباتها، فما بين انشراح النفس وانقباضها، وانتصارها وانكسارها، وقوتها وضعفها، يتشكل الوعي وتنضج التجربة، ويتحقق التوازن النفسي الذي يعيد الإنسان إلى ذاته ويمنحه القدرة على التأمل وتقدير الأمور، والتعامل بفهم عميق مع " أزمة الحياة وما فيها من خير وشر وورد وشوك، وأمل ويأس، ونور وظلمة، وسرور وحزن فليست حياة الإنسان مشرقة دائماً، ولا ظلمة دائماً، بل تلتقي فيها الصفحتان، تارة تكون نقية مشرقة وتارة تكون كدرة قاتمة"<sup>(1)</sup>. لقد أصبحت هذه الحياة وما طُبعت عليه من كدر مادة خصبة للشعراء ومنبعاً متدفقاً لإبداعاتهم وميداناً فسيحاً تلتقي فيه تجاربهم الإنسانية للتعبير عما يعتمل في صدورهم ويثقل كواهلهم؛ تخففاً من وطأة الألم، وتحريراً لمشاعرهم المكبوتة التي تعجز اللغة العادية عن التعبير عنها بعمق ووضوح، ومن هنا أعادوا تشكيل الحزن من مجرد شعور وقتي إلى مادة خصبة للإبداع، وجسر للتواصل مع ذواتهم والآخرين، وفضاء رحب للتعبير عن رؤيتهم للحياة بصورة فنية ومؤثرة.

لقد ظلّ الحزن شعوراً أصيلاً في الشعر العربي، وجزءاً لا يتجزأ من تجربة الشعراء، لاسيما في الشعر المعاصر حيث استفاضت نغمته " حتى صارت محوراً أساسياً في معظم ما يكتب الشعراء المعاصرون من قصائد"<sup>(2)</sup> ولعلّ ذلك يرجع إلى تبلور أبعاد جديدة وتحولات متسارعة تتصل بالمتغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية التي أفرزت واقعاً مليئاً بالأزمات والصراعات، وعمّقت من مشاعر الحزن وتنوعها وتعقيدها.

ومن هذا المنطلق توخى الباحث النظر في ظاهرة الحزن التي شكّلت سمات وخصائص ديوان (البلبل الأسير) وتلمس بواعثها المتعددة لدى الشاعر، والكشف عن الأفكار والرؤى، والمشاعر والانفعالات التي اكتتفتها نصوص الديوان، والتعرف على الأبعاد الجمالية والفنية التي بلورت هذه الظاهرة. ويمكن القول إنّ أهمية البحث تكمن في أصالة موهبة الشاعر، وعمق تجربته الشعرية، وتعدد بواعث حزنه بدأ من معاناة اليتيم والفقر، والنزوح عن مسقط رأسه ومفارقة والدته في سن مبكرة، ثم مكابדתه للحياة وتحدياتها؛ لاسيما تجرعه مرارة الفقد بتوديع بعض أبنائه وأحفاده، فضلاً عن قضيته الأولى التي نافع عنها طيلة حياته والمتعلقة بأوجاع أمته الإسلامية وما قاسته من حروب ونكبات.

(1) دراسات في الشعر العربي المعاصر، شوقي ضيف، دار المعارف، ط7، ص105.

(2) الشعر العربي المعاصر، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، ط3، ص352.

إنّ كل تلك البواعث آخت بين مشاعر الحزن في الديوان، مفضية إلى إفراز معجم يتقاطع الألم فيه مع الغضب، ويتنازع فيه اليأس والأمل، وهي مشاعر إنسانية سامية، تمخضت عن شاعر فدّ دلّ على رقة حسه من جهة، وعلى نبلة ووفائه من جهة أخرى.

ولم أجد-حسب اطلاعي- سوى دراسة يتيمة تناولت شعر سعد العوفي وهي دراسة تقدّم بها الدكتور: عبدالرحمن المطرّفي بعنوان (النزعة الإنسانية في شعر سعد العوفي الرؤية والتشكيل الفني) في مجلة القراءة والمعرفة، العدد 199، 2018م. تتبع فيها القضايا الإسلامية والعالمية التي تناولها الشاعر في دواوينه الثلاثة (ملاحم الشرف) و (بركان الغضب) و (بيد أخي قتلت) وهو بحث لم يتطرق إلى ظاهرة الحزن عند الشاعر فضلاً عن عدم معالجته لديوان (البلبل الأسير).

واقترضت طبيعة الدراسة أن تقسّم إلى مقدمة، وتمهيد، وفصلين، وخاتمة. أما المقدمة فتحدثت فيها عن أسباب اختيار الموضوع وأهميته، والدراسات السابقة، ثم عرضت خطة البحث، ومنهجه، وخصصت التمهيد للحديث عن العوفي حياته وشعره، وكذلك مفهوم الحزن في الدلالة والمصطلح.

وأفردت الفصل الأول للكشف عن بواعث الحزن في الديوان محل الدراسة، وإظهار تنوعها ما بين البواعث السياسية، ثم الاجتماعية والثقافية، وانتهاءً بالبواعث الذاتية. ثم كان الفصل الثاني لمعالجة آليات التعبير عن الحزن في الديوان، من خلال دراسة جملة من الخصائص الأسلوبية، وتوظيف عناوين القصائد. وانتهيت من ذلك إلى الخاتمة وفيها خلاصة البحث وأهم النتائج والتوصيات.

وأقمت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي في جمع المادة العلمية وتصنيفها وبيان قيمتها من الناحيتين الأدبية والفنية، دون أن أغفل بعض الملامح النفسية في الكشف عن بواعث الحزن في الديوان متخذاً من السيميائية رافداً مهماً في معالجة عتبات النص لاسيما دراسة العنوان.

#### التمهيد:

#### أ-سعد العوفي حياته وشعره:

هو سعد بن سعيد العوفي، ولد عام 1342هـ أو 1345هـ -حسب ترجيحه- وكان مولده في ذات (الشلايل) جنوب غرب المدينة المنورة، نشأ يتيماً في كنف والدته تحوطه بالرعاية والعناية رديحاً من الزمن، ثم انتقل إلى المدينة المنورة؛ ليتلمذ فيها بمدرسة (دار الأيتام) والتي كان لها أكبر الأثر في صياغة شخصيته وتكوينه الأدبي، يدلنا على ذلك ثاؤه عليها، وانتفاعه بأساتذتها وعلى رأسهم الأديب الكبير محمد حسين زيدان، ولما شبّ عن الطوق التحق بالسلك الحكومي فشغل عدة وظائف في مدن شتى من المملكة؛ طلباً للرزق وخدمة للوطن، وبعد إحالته إلى التقاعد استقرّ به المقام في المدينة المنورة ولم يزل مقيماً بها.

يعد العوفي من التيار المحافظ الذي ينزع إلى التمسك بتقاليد القصيدة العربية القديمة إيقاعاً ولغة وتصويراً وقد صدر له خمسة دواوين، وسيرة ذاتية، استطاع من خلالها أن يثري الساحة الأدبية والثقافية وسأجمل ذكرها على النحو التالي: ديوان ملاحم الشرف (1405هـ) وديوان بيد أخي قتلت (1407هـ) وديوان بركان الغضب (1409هـ) وديوان على مدارج الزمن (1440هـ) وديوان البلبل الأسير (1440هـ) وسيرة ذاتية: مسيرة على الأشواك (1438هـ)<sup>(3)</sup>.

### ب- الحزن في الدلالة والمصطلح:

جاء في لسان العرب " الحُزْنُ والحَزَنُ: نقيض الفرح، وهو خلاف السُرور... وقد حَزَنَ، بالكسر، حَزَنًا وتحَزَنَ وتحَزَّنَ. وَرَجُلٌ حَزَنَانٌ ومَحْزَانٌ: شديد الحُزْنِ... وعام الحزن العام الذي ماتت فيه خديجة، رضي الله عنها، وأبو طالب فسماه رسول الله ﷺ عام الحُزْنِ"<sup>(4)</sup> وأصل الكلمة يدل على خشونة الشيء وشدة فيه. وقد وردت لفظة الحزن في القرآن الكريم في عدة مواضع، منها قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (سورة يوسف: 86) وكان قبلها عليه السلام قد ابيضت عيناه من الحزن من شدة جزعه وحزنه على ابنه يوسف عليه السلام، وفي قصة نبي الله موسى قال سبحانه: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ (سورة طه: 40) وغيرها من آيات كتاب الله، كما جاءت لفظة الحزن في الحديث النبوي من ذلك قول النبي ﷺ حينما ابتلي بوفاة ابنه إبراهيم: (إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا تَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ)<sup>(5)</sup>.

ومفهوم الحزن في كتاب (الكليات) هو أنه: "غم يلحق من فوات نافع أو حصول ضار"<sup>(6)</sup> كما عرفه صاحب (المعجم الفلسفي) بأنه: "ألم نفساني يغمر النفس كلها، ويرادفه الهمّ والغمّ والكآبة... وهو إما أن يحصل للنفس بالعرض لوقوع مكروه أو فراق محبوب، وإما أن يحصل لها بالطبع لانطواء مزاجها على القلق والاضطراب"<sup>(7)</sup>. ومهما يكن من أمر فإن الحزن يعد قوة إبداعية تعكس تجارب إنسانية عميقة تتغلغل في صميم الذات وتدفع المبدع إلى التعبير عن مشاعره الدفينة من خلال إعادة إنتاج الألم والمعاناة إلى عمل فني يتسم بالجمال والتأثير، متجاوزاً بذلك مجرد البوح والتفيس إلى مشاركة المتلقي هذه التجربة الحية المؤثرة.

(3) ينظر: مسيرة على الأشواك، سعد العوفي، 1438هـ، وكذلك: الغلاف الأخير من ديوان (البلبل الأسير)، وينظر كذلك: النزعة الإنسانية في شعر سعد العوفي الرؤية والتشكيل الفني، عبدالرحمن دخيل ربه المطرفي، مجلة القراءة والمعرفة، العدد 199، 2018م، ص: 111.

(4) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، ط6، 3-109/4.

(5) صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب، دار ابن كثير، ط5، 39/1.

(6) الكليات، لأبي البقاء الكفوي، اعتنى به: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط2، ص428.

(7) المعجم الفلسفي، جميل صليبيبا، الشركة العالمية للكتاب، 1994م، 466/1.

## الفصل الأول: بواعث الحزن في ديوان البلبل الأسير.

### 1- البواعث السياسية:

ظلّ الشاعر مهموماً بقضايا أمته وفيماً لأوجاعها وآمالها ، يحمل بين جوانحه مسؤولية وجدانية عميقة تجاه ما تعانیه من نكبات وأزمات ، يتألم من مشاهد ظلمها وضعفها ، واستباحة مقدراتها ، ويتماهی مع جراحاتها مستشعراً أنه جزء لا يتجزأ من جسد أمته ، فيقول معبراً عن هذا التماهي:

إني حملتُ همومَ أمةٍ أحمد      جُمعتُ مدىً دأبتُ تشكُّ حَواصيري



فإذا تأوّه مسلمٌ من نكبة      ألفتيني المطعونَ بينَ عشائري



أبكي دماً يتنألُ شعراً باكياً      والشعْرُ روحٌ لا مِدادَ محابري<sup>(8)</sup>



إنّ هذا الحزن المشترك الذي تتشابك فيه الأوجاع والخيبات ، ويتجسد من خلاله مفهوم الوطن الواحد استحضره الشاعر في ندائه لبغداد ، قائلاً:

بغدادُ ما بالُ الكوارثِ تكبرُ      ويَطولُ ليُلكُ والليالي تُقصرُ



يا دُرّةَ الأمصارِ لا كانَ الأسَى      بناً مثلَ ما بكِ في الجوانحِ يُسعرُ<sup>(9)</sup>



وقد كان لمأساة الشعب الفلسطيني وما نزل به من ضروب البلاء والتككيل والقتل والتهجير، أثر كبير في شعر العوفي، فالمتتبع لقصائد الديوان يجد المأساة الفلسطينية ماثلة أمامه في كل نص يتناول قضايا الأمة ففي قصيدة (محرقة النازي الجديدة) اتخذ الشاعر من إمعان جيش الاحتلال في البغي والعدوان موضوعاً له ، وهي قصيدة تتناول وحشية الممارسات الصهيونية في ارتكاب المجازر ، وفرض حصار مشدد على شعب أعزل يتساقط أحيائه واحداً تلو الآخر بسبب الجوع والعطش والمرض ، يقول الشاعر واصفاً هذه القسوة وتلك الوحشية:

لُتسائلُ التاريخَ هذي الأسطرُ      والنارُ في شعبِ البَسالةِ تُسعرُ



والناسُ كلُّ الناسِ ترقبُ هولها      والدورُ تُنسفُ والبواسلُ تُقبرُ



(8) ديوان البلبل الأسير، ص 89.

(9) السابق، ص 51.

والحيُّ يقتله حصاراً أعسرُ

والماءَ لأذِّ والدَّواءُ محرماً



وتتخذ القصيدة منحى آخر تركز فيه على جلد الذات وتوصيف الداء، بنبرة يعلوها الإحباط واليأس؛ إذ يبدو الشاعر ناقماً على خنوع جيله، يائساً من يقظته، مستحضراً في ذلك تاريخ العرب قبل الإسلام وكيف استبد بهم الوهن والاختلاف. إن هذا الحزن الطاغي أفضى بالشاعر إلى بعث رسالة استغاثة وتحذير للأجيال الناشئة، يدعوهم فيها إلى اقتحام ميادين العزة وكسر أغلال الذل، وألا يعيدوا تجربة جيله الجاثم منذ زمن بعيد في ظل أوامم السلام، ومصانعة المحتل خوفاً وعجزاً، والاكتفاء بعقد مؤتمرات وإصدار بيانات تنديد وشجب لتلك المجازر التي طالت (جنين) وغيرها من المدن والقرى الفلسطينية واصفاً تلك المجازر بالمرحقة الحقيقية التي حدثت على مرأى ومسمع من العالم:

فَتَبَصَّرُوا فِي أَمْرِكُمْ وَتَدَبَّرُوا

يَا مُقْبِلَ الْأَجْيَالِ آتِ دُورَكُمْ



فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ يُعْبَدُ قَيْصَرُ

لَيْسَ جَدِيداً مَا نَرَاهُ تَذَكَّرُوا



وَالذُّلُّ فِي سُبُلِ الْكِرَامَةِ سُكَّرُ

الْعَزُّ فِي ظِلِّ الْهَوَانِ مَذَلَّةٌ



فَلَعَلَّ فِي أَجْيَالِكُمْ مَا يُبْهَرُ

فِي جِيلِنَا الْأَمَالَ بُدِّدَ شَمْلَهَا



لكن (جنين) بها تُحَسَّ وَتُبَصَّرُ<sup>(10)</sup>

هلوكوست) محرقة اليهود خُرَافَةٌ



إن سمة الالتزام التي اتسم بها العوفي تجاه القضايا الكبرى التي تؤرق أمته ألفت بظلالها على تجربته الشعرية وكأنها ظل دائم يرافقه أينما حلّ، وحزن متأصل في أعماقه لا يستطيع الانعتاق عنه حتى في لحظات تأمله واستمتاعه؛ لذا يعتمد إلى خلق تناقض بين الجمال الخارجي، وما تنطوي عليه نفسه من ألم ممرض، مما يضفي على شعره بعداً تأملياً تتداخل فيه مشاعر الأسى بالطبيعة الخلابة، ففي قصيدة بعنوان (الطيور المهاجرة) استهلها بقوله:

أَلَدِيكَ شَوْقٌ عَارِمٌ يَزْدَادُ<sup>(11)</sup>

فِي كُلِّ عَامٍ رِحْلَةٌ وَمَعَادُ



(10) ديوان البلبل الأسير، ص 60-61.

(11) السابق، ص 12.

يتطرق الشاعر إلى وصف الرحلة الجمالية لهذه الأسراب المهاجرة وما قد تتعرض له من مخاوف  
لاسيما من أرباب الصيد الجائر، فيقول:

وَعُرُوضُ أَجْوَاءٍ لَدَيْكَ تَجَادُ      إِي لِيَّاسِرُنِي جَمَالِكَ سَابِحًا  
أَنْى سَجَعْتِ يَرُوقُنِي إِنْشَادُ      وَيَشُوقُنِي التَّغْرِيدُ فَجْرًا أَوْ ضَحَى  
فِي كُلِّ فَاجِعَةٍ بِهَا تُصْطَادُ      وَأَحْسُ نَارَ الحُزْنِ بَيْنَ جَوَانِحِي  
كَوْنِ الجَمَالِ مِنَ الوجودِ يُبَادُ      وَيَحْرُقُ فِي نَفْسِي وَيُلْهَبُ خَاطِرِي

ثم يتوسل بهذه اللوحة للتعبير عما يساوره من هموم وآلام تجاه أمته، قائلًا:

بَاتَتْ طَرَائِدُ تَشْتَهَى وَتُصَادُ      تِلْكَ الفَرَائِسُ شِبْهُ أُمَّةٍ يَعْربِ  
فَتَجْنِدُلُ الأفْوَاجُ والأفْرَادُ      لَا تَدْفَعُ الضَّرَاءَ عَن أسْرَابِهَا  
وَعلى مَنوَالِ القَصيدةِ السَابِقةِ يَقولُ فِي قصيدةِ بَعنوانِ (مناجاة):  
عَنَّ لِلدُّنْيَا بِنَفْسٍ رَاضِيَةً      عَنَّ يَا طَيْرَ المَرُوجِ النَّاضِرَةَ

عَنَّ جَدَلَانًا وَلَا تَحْفَلُ بِمَا      قَدْ مَضَى والمَزْعِجَاتِ الأتِيَةِ (12)

تتطوي القصيدة على لون من التداخل والتناقض، والاتكاء على عقد المقارنات لإحكام الفكرة وإظهار المفارقة، ففي مستهل القصيدة يشدو طائر بألحانه دون خوف أو قيد، وحين يتوجس من خطر ما يسارع إلى أغصان الأشجار، متخذًا منها ملاذًا آمنًا تواريه من سطوة الطيور الجارحة التي تتشد الظفر ولو بطائر واحد، ثم ما يلبث إلا قليلًا حتى يستعيد حياة الغناء والحرية. لقد صور الشاعر مشهد هذا الطائر إزاء أمة تعاني وطأة الموت تحت راجمات الصواريخ التي لا تميز بين صغير وكبير حيث لا مفر من الموت، فالناس يفقدون أرواحهم دفعة واحدة في لحظة تجسد أبشع صور الموت الجماعي، ثم لا

(12) ديوان البلبل الأسير، ص 8.

تهدأ غارة إلا وقد شئت أخرى، يقول الشاعر:

وبلاد الرّافدين الجّاشية

عن فلسطين وما حلّ بها



طفلة تحبو وأماً باكية

قاذفات النّار لم تُبقِ بها



وهنا آلفنا في ثانيه

غارة الشّيهان تفرّي واحداً



ورفاقي ما لهم من حامية

أنت تحميك غصون جمة



فإذا هم مزقاً متراميه

تضرم النّار في أجسادهم



ويختتم الشاعر هذه المقارنة بمفارقة ملؤها الإحباط واليأس وقد استوت عنده النشوة بالبكاء؛ مما أفضى به إلى حالة من موت الشعور، وفقد القدرة على التفاعل مع الحياة:

نعمة جدلى وأخرى باكية

غنّ يا طيرتساوى عندنا



ويشكّل الدعاء حضوراً بارزاً في ديوان الشاعر؛ إذ يعكس مدى ارتباطه الروحي بأمتة، ويشير في الوقت ذاته إلى تدفق مشاعر الشفقة والرحمة، والتمرد على الألم من خلال مناجاة صادقة تتجاوز المستوى اللفظي إلى مستويات وجدانية عميقة تذوب فيها الحدود بين الشاعر والقارئ، فيتحوّل الدعاء إلى لون من ألوان الوحدة والتضامن، والتجربة الشعورية الحيّة، يقول:

أنت المغيثُ أو أن الحادث الأزم

يا مُنشئ الأكوان يا من يُستجارُ به



يا عالم الحال قبل النطق بالكلم

يا عالم السرّ لا تخفك غائبة



في لجة ازبدت بالموج مُلتطم

تدارك الأمة الوسطى فقد غرقت



والجو يقذفها كسفاً من الحمم<sup>(13)</sup>

ضأقت بها الحال فالأكباد دامية



(13) ديوان البلبل الأسير، ص73.

وعطفاً على ما سبق فإنه يمكننا القول إنَّ الشاعر كشاهدٍ عاين تاريخ أمته المشخن بالجراح، ظلَّ وفياً لقضاياها باعتبارها محوراً رئيساً من محاور شعره، حيث جادت قريحته بقصائد تنعي وطأة البؤس وقسوة الحرمان، وتسعى في الوقت ذاته إلى توثيق هذه المآسي في الذاكرة الجمعية، وتتفخ جذوة الشعور في وجدان الأجيال القادمة، وتُخلد تلك التضحيات التي بُذلت من أجل عزة الأمة وكرامتها.

## 2-البواعث الاجتماعية والثقافية:

يعد المجتمع في ديوان (البلبل الأسير) مصدراً ثراً من مصادر الإلهام التي استمد منها العوفي تجربته الشعريّة مجسداً بذلك حالة من التفاعل المستمر مع معطيات الحياة وهموم المجتمع، ومعبراً عن مشاعر الارتباط والتواصل وعدم الانفصال عن واقعه؛ مما يشي برهافة حسه ووعيه بقضايا عصره، فالأديب البارع لا بد أن يستوحي مضمون أعماله من المجتمع الذي يعيش فيه، ويتأثر بأحواله وملابساته في أثناء قيامه بعملية الإبداع الفني، وذلك أن الأديب-وهو الضمير الواعي لمجتمعه- لا بد وأن يبلور وجدانه ويضع يده على نقاط الضعف والقوة<sup>(14)</sup>. إنَّ هذه البواعث الاجتماعية تدخل في إطار التوجه التربوي والأخلاقي الذي عُني بها التيار المحافظ في الشعر العربي، فأروا ضرورة أن يوجه الشعر إليها<sup>(15)</sup>، وأن يتردد في شياها المعاني التي تقوم المجتمع، وتنتشر الأخلاق السامية الرفيعة.

لقد تبلورت بواعث الحزن الاجتماعي والثقافي عند الشاعر في صور نقده لبعض الظواهر السلبية، أو رغبته في التغيير، وذلك من خلال لغة تراوحت بين الحدة والحسرة، فالراصد للديوان يجد عدداً من القصائد التي عالجت بعضاً من الموضوعات المتصلة بالواقع الاجتماعي حيث أصبحت الظواهر المؤسفة التي أفرزتها الحياة الاجتماعية محط اهتمام الشاعر، فمن تلك الظواهر على سبيل المثال، قسيده بعنوان(ضياع)<sup>(16)</sup> وهي قصيدة اتخذت منحى قصصي في تناولها للقنوات الفضائية التي لاقت قبولاً واسعاً في ذلك الزمن؛ مما تسبب في إهدار النشء لطاقتهم وقدراتهم، والانغماس في سفاسف الأمور التي تحجب الوعي، وتستهلك العقول، وتحول دون الترقى في مدارج العلم، يقول الشاعر:

صَبِيًّا بلا رُشْدٍ إلى أن غداً كهناً

لدى شاشَةِ التَّلْفَازِ أمضى حياته



فَلذَّتْهَا في كُلِّ شَارِقَةٍ أحلى

قَضَى سائِرَ الآناتِ في غيرِ رحمةٍ



(14) التفسير العلمي للأدب: نحو نظرية علمية جديدة، نبيل راغب، المركز الثقافي الجامعي، ص139.

(15) ينظر: الأدب العربي الحديث، محمد صالح الشنطي، دار الأندلس، ط5، ص109.

(16) ديوان البلبل الأسير، ص38.

وفيها يقول:

يُلاحقُ أشباحاً بها نفسهُ جَدَلِي

وَيُنْفِقُ رَبَّ (الدَّشِّ) أَيَّامَ عَمْرِهِ



سَفَاسِيفُ لِهَوٍ لَمْ تَكُنْ عُرِفْتَ قَبْلًا

أَسَفْتُ عَلَى هَذَا الشَّبَابِ تُضْيِعُهُ



وَيَرْضَى بِهَا دُونَاً وَمَوْضِعَهَا أَعْلَا

وَأَرْتِي لَذِي عَقْلٍ يَبِيعُ حَيَاتَهُ



ومن الظواهر المؤسفة التي أصبحت سبباً في بؤس المجتمع، وهاجساً مؤرقاً لكل أسرة سعودية الاستهانة بقيادة المركبات، فقد باتت الطرق مسرّحاً لاصطياد أحلام هذه الأسر؛ لكثرة ما خلفت من دماء مسفوكّة وما تركت من ندوب دامية لا تلتئم في صدور من فقدوا أحبّتهم، وهنا يتناول الشاعر بحرقة تبعات الحوادث المرورية وما ترتب عليها من عواقب وخيمة، قائلاً:

هَنِيئًا كَانَ يَنْعَمُ بَارْتِيَا ح

فَكَمْ أَفْنَتُ كَلَمَحِ الطَّرْفِ بِيئًا



مَعُوقًا أَوْ قَعِيدًا غَيْرَ صَاح

وَكَمُ مِنْ قَادِرٍ أَمْسَى طَرِيحًا



يُعَانِي الْهَوْلَ مِنْ أَلَمِ الْجِرَاح

وَذَاكَ مُشَوِّهًا فِي النَّاسِ أَضْحَى



مُفْرَطٌ جَاءَ بِالْكَرْبِ الْمَتَاحِ (17)

وَيُحْزِنُنِي الْبَرِيءُ جَنَى عَلَيْهِ



وفي سياق البواعث الاجتماعية يُظهر الشاعر قدرة فائقة على تحويل المعاناة الشخصية إلى إطار نقدي أوسع، تتشابك فيه البواعث الذاتية والاجتماعية، ويختلط الهمّ الفردي بالمجمعي؛ مما يمنح النصّ لوناً من ألوان القبول والتأثير لدى النسيج الاجتماعي الذي يعاني من المشكلات ذاتها، وقد كانت المملكة حين كتابة تلك القصائد تخطو خطواتها الأولى في تحديث الأنظمة وصناعة مستقبل أكثر مرونة وابتكاراً.

لقد توصل الشاعر بالشكوى لكشف سوء مظاهر البيروقراطية واللوائح المعقدة التي عطلت المصالح وزادت من مشاعر الإحباط في بعض الدوائر الحكومية، فمن ذلك قوله في قصيدة يعبر فيها عن شعوره بالعجز أمام إجراءات متراكمة لا تراعي عوزه وشيخوخته، فيقول مخاطباً مسؤول هذه الدائرة:

(17) ديوان البلبل الأسير، ص 25.

أنا في ملكي الصريحُ أعزُّ



ويكون النظامُ أسَّ التَّأخُّرِ



واطئُ الجمرَ لا يطيقُ التَّصَبُّرُ<sup>(18)</sup>



يا معالي الأمينِ اللهُ أكبرُ

قد يكونُ النظامُ مصداقَ عزِّ

لا تلمني إذا استثيرَ شعوري

وفي خاتمة القصيدة يطلق الشاعر دعوة صريحة لمعالجة هذه الإجراءات المعقدة وبناء أنظمة تواكب

ركب التطور، وتدعم تطلعات المجتمع:

حاذَ عن نهجنا قطارَ التطورِ



إن تمادتُ أمورنا في تردِّ

وبأسلوب نقدي ساخر يظهر الشاعر حسرته على إهدار التقنية في بعض المؤسسات، وفقد فرص

استثمارها لرفاهية المجتمع، وتحولها من أداة للإنجاز والإنتاج إلى عبء ينم عن سوء التخطيط، وعدم

كفاءة الاستخدام، يقول في هذه القصيدة:

من الحاسوبِ أو يُجْرى



أما تَبُرُوزها السَّحْراً



يحوِّلُ خصبها صحْراً



لنخطو خلفه شيباً<sup>(19)</sup>



عَجِبْتُ: أكلُ ذا يَجْري

حَسْبناهُ عَصا موسى

وإذ بالسحرِ موجودٌ

ويخطو عَصْرنا ميلاً

ونجد هذا النَّفس في قصائد أخرى كقصيدة بعنوان (هموم زراعية)<sup>(20)</sup> وأخرى بعنوان (الروتين

واللوائح)<sup>(21)</sup>.

وإزاء ترددي الحالة الثقافية واختلال ميزان الوعي في المجتمع، يعلو إحساس الألم والغربة لدى الشاعر

حين يشاهد (كرة القدم) وقد مُنحت الشهرة والاحتراف والتكريم، في الوقت الذي يعاني فيه الأبداء

(18) السابق، ص20.

(19) ديوان البلبل الأسير، ص47.

(20) السابق، ص56.

(21) السابق، ص69.

من الإهمال والفقر وضيق اليد بعيداً عن الاعتراف والتقدير الذي يمكنهم من أداء رسالتهم الأدبية.

ففي قصيدة بعنوان (ظهور آفة وموت ثقافة) يكشف عن مفارقة تعكس تناقضاً جلياً في القيم والأولويات يقول الشاعر:

دَعْ غَيْرَهَا لِعْنَاكِبِ وَغُبَارِ

قَالُوا: الرِيَاضَةَ وَالرِيَاضَةَ مِنْهُلْ



دَعَهُ وَمَوْتَ الْبُطْءِ فِي الْأَشْعَارِ

وَدَعَ الْأَدِيبَ لِفَقْرِهِ وَخُمُولِهِ



دُنْيَاهُ بِالْمَلْيُونِ وَالْمَلْيَارِ (22)

لَوْ كَانَ يَلْعَبُ فِي فَرِيقٍ أَمْطَرَتْ



وفي السياق ذاته يتطرق الشاعر إلى (أدباء الظل) الذين يكافحون بصمت وعزلة دون أدنى تقدير من الصحف ووسائل الإعلام لتناجهم الأدبي، وانشغالهم بأسماء لامعة لا يمثل أدبهم قيمة حقيقة؛ بل هو أدب مبتذل يفتقر إلى المهوبة والإبداع، يقول الشاعر:

لَهُ قَارِئًا مُنْصَفًا فِي الضِّيَاءِ

سَيَكْتَبُ فِي الظِّلِّ مَنْ لَمْ يَجِدْ



أَزَاخُوهُ وَاسْتَمْتَعُوا بِالْهَرَاءِ

إِذَا قَالَ قَوْلًا رَصِينَ الْجَذْوَرِ



وَإِنْ كَانَ صَنَاجَةَ الْبُلْفَاءِ (23)

صَحَافَتِهِمْ تَكْتُمُ أَنْفَاسَهُ



وعطفاً على ما سبق يتجلى التصاق الشاعر بمجتمعه ووعيه بالقضايا التي تعيق مسيرة التطور والنمو وتركن إلى الجمود والجهل؛ يدفعه إلى ذلك إحساسه بالمسؤولية المجتمعية، ورغبته الملحة نحو التغيير والإصلاح.

### 3- البواعث الذاتية:

وأقصد بها بواعث الحزن الشخصية التي ارتبطت باليتم والفقد، وتأمل الذات، وهي بواعث أضفت على تجربة الشاعر عمقاً وتأثيراً، ومنحتها طابعاً إنسانياً صادقاً مسّ من خلالها وجدان القارئ، وأوجد مساحة من التواصل العاطفي بينهما.

(22) السابق، ص 23.

(23) ديوان البلبل الأسير، ص 27.

لقد شكّلت مدرسة (دار الأيتام) ملاذاً آمناً للشاعر، وفتحت آفاقاً واسعة يستكشف من خلالها عوالم لم يكن يحلم بها يوماً، فكانت بمثابة أم رؤوم، وبيئة دافئة خففت عنه وطأة اليتيم، وأخذت بيده من الحيرة والضياغ حين وجهته نحو المستقبل بأمل وثقة، يقول العوفي مخاطباً هذه المدرسة:

وَمَحَى حَنَانِكَ قَسْوَةَ الْأَيَّامِ

أُمَاهُ يَا مَنْ حَقَّقْتَ أَحْلَامِي



نَهَشْتَ ضَرَاوِثَهَا نَخَاعَ عِظَامِي

وَتَسَلَّتِي مِنْ وَهْدَةِ الْبُؤْسِ الَّذِي



خَلْفِي هَلَاكَ مُحَدِّقٌ وَأَمَامِي

قَدْ كُنْتُ فِي بِيْدَاءِ قَفْرِ مُوحِشٍ



يَمْشِي بِلا هَدَفٍ إِلَى الإِعْدَامِ<sup>(24)</sup>

حَرَّ السَّمُومِ لظَاهُهُ يَحْرِقُ هَيْكَلًا



ثم يشير الشاعر إلى إخوة المعاناة والفقد الذين هيأت لهم المدرسة بيئة مستقرة انعكست على تضامنهم في مواجهة التحديات والصعوبات:

هَمِي.. أَشْقَاءٌ مِنَ الْيَتَامِ

وَبِجَانِبِي جَيْشٌ عَرْمَرُمُ هَمَمِهِمْ



وهنا التآخي حلّ في الإنعام

البؤس والحرمأن أحى بيننا



لقد تجلّت مظاهر الحزن في الديوان من خلال شعر الفقد الذي تجسد في ثقل الألم وعظم المصاب بصورة تهز القلوب، وتفيض بالحزن والانكسار، حيث فجع الشاعر برحيل بعض أبنائه وأحفاده، وهو رحيل انتزع جزءاً من روحه وقلبه. فمن خلال استظهار الديوان نجد البكاء الميرير واللوعة الحارقة تتبدى في مقدمات رثائه لأحفاده، إلا أن خواتيم هذه القصائد تمثل تحولاً روحياً ملؤه السكينة والرضا بقضاء الله وقدره، فمن ذلك استهلاله لقصيدة مؤثرة نعى فيها حفيده (زيد) أطلال فيها التوجع وإظهار الألم وقد توقفت الحياة واستحالت إلى لون قاتم نزعته منه اللذات والرغائب:

جَلَّ الْمَصَابُ وَحَانَ مِنْكَ فِرَاقُ

اليوم لا درس ولا أوراق



قد كنت في شربانه تنساق

غادرت مدرسة الحياة ومنزلاً



(24) ديوان البلبل الأسير، ص85.

مَا لِلحَيَاةِ وَقَدْ فُقدتْ مَذَاقُ (25)

يَا مَنْ تَأبَدَ فِي القُلُوبِ وَدَادُهُ



ويصفه وصفاً مؤثراً من خلال تصوير الجسد المسجى، وكأن الحفيد يغفو إغفاءة طالب متعب بعد يوم دراسي شاق، فيناديه نداء متأمل يبقي في داخله رجاءً خافتاً بأن يجيبه ولو لمرة أخيرة، ولكن الصمت القاسي يمثل حقيقة الموت، ويوحى بمشاعر الصدمة والعجز:

إثْرَ الدْرَاسَةِ مَسْهَأَ إِرْهَاقُ

وَكَأَنَّمَا عَيْنَاكَ فِي إِغْفَاءِ



ذَآكَ المَجِيبُ الطَّيِّعُ السَّبَاقُ

وَطَفَقْتُ أَدْعُو: يَا زِيَادُ فَمَا هُنَا



ثم يظهر في ختامها نوعاً من التماسك والطمأنينة من خلال تطلعه للقاء الآخرة:

حُورُ النِّعَمِ كُؤُوسَهْنَ دِهَاقُ

نَمْ يَا حَبِيبَ الرُّوحِ نَوْمًا هَادِنًا



أَمَّنْ وَمَا لِعُوهَدَهَا مِيثَاقُ

وَدَعْتَ دُنْيَانَا مَا لِحَيِّ عَاشَهَا



وَإِذَا التَّقِينَا فَرَحَةً وَعِنَاقُ

مَنَا السَّلَامُ عَلَيْكَ حَتَّى نَلْتَقِي



وفي قصيدة أخرى يرثي حفيداً آخر (معاذ) ويصفه بعديل الروح، تعبيراً عن شدة تعلقه به، يقول في مطلعها:

وَمَا عَايَشْتَنَا إِلَّا قَلِيلًا (26)

عَدِيلُ الرُّوحِ عَجَلَّتْ الرِّحِيلَا



وفيهما تتجلى دهشته من حقيقة الموت الذي آثر أخذ الصغير وأبقى الشيخ على قيد الحياة رغم كبر سنه وعدم قدرته على تحمل مرارة الفقد، وينطلق الشاعر من مبدأ أبوي يرتكز على التضحية بالروح لحماية صغيره، مستخدماً دلالات حاسمة تقوم على المبادرة بالفداء وحسم مسألة المقايضة بأنه أخرى وأولى بالغياب؛ نظراً لفارق العمر وشدة التعلق بالصبي، يقول الشاعر:

وَيَبْقَى الشَّيْخُ فِي حُزْنٍ عَلِيلاً

فِيَا عَجَبًا يَمُوتُ حَفِيدُ شَيْخٍ



(25) السابق، ص 80.

(26) ديوان البلبل الأسير، 82.

وكان الكهل بالأحرى البديلا

ولو يُشْرِى الفداء لكنت تُفدى



ويخاطب حفيداً له لم يتجاوز تسعة أشهر قضى والده في حادث مروري بأبيات ملؤها الألم والشفقة:

والدمع حولك في العيون يُترجمُ

عمارُ ماذا في الوجود أتعلمُ



ليلاء والقدرُ المصيبُ مُحتمُّ

نزلَ القضاءُ عليكم في ليلةٍ



والأمُ متعبةٌ يخضبها الدمُّ<sup>(27)</sup>

فيها الأبُ الحاني ثقّلصَ ظلهُ



ويتلمس الجد الحاني مواطن الرحمة في هذا الفقد وهو ينظر إلى صغيره وقد ارتسمت على شفثيه  
ابتسامة بريئة تجهل هول المصاب والفقد:

رهنَ العناية بالرضاعة يحلمُ

يا رحمتاه لابنِ تسعة أشهرٍ



عما ألم وأن تُعركَ يبسمُ

والخيرُ كلُّ الخيرِ أنك غافلُ



ألماً لفقدِ أعزّ حانٍ يرحمُ

لو كنت تُدركُ ما يدورُ لزدتتا



ثم يقول:

ألم المصابِ فكلهم مُتألمُ

المشفقون لديك جمع شملهم



لا تنتهي ومُجالدٌ يتكتمُ

هم لو فهمت ملوعٌ في شهقةٍ



كرمُ الإلهِ فلازمتُه الأنعمُ

كم صغيرٍ ذاق يُتمك ناله



جلى يمثلها الرسولُ الأعظمُ

ولكلّ من حرم الأبوة أسوة



يبرز الحزن في النص عبر مشاهد مؤثرة تتعدد أوجهها. فيبدأ الشاعر بتصوير الفقد في مشهد يفيض بالدموع، حيث تصبح الدموع لسان القلب المعبر عن وجع الفراق، فالدموع هنا روافد للألم الداخلي ورمزاً لمعاناة دفينه، تعجز اللغة عن احتوائها.

كما يستحضر الشاعر صدمة القضاء النازل فجأة في ليلة شديدة الظلام، وكأن القدر يحيط بهم دون مفر، فالليل في هذا التصوير ليس مجرد زمن، بل هو ظلام نفسي أحاط بالأرواح، وأطفأ أنوار الحياة. وتتضاعف المشاعر ألماً في تصوير تقلص ظل الأب، إذ يعبر هذا الوصف عن الغياب الذي يترك فراغاً مهيباً في حياة الأسرة، بينما تستنزف الأم قواها في مواجهة المصيبة، فيظهر تعبها مرآة للمعاناة الجسدية والنفسية التي تنن تحت وطئها.

ثم يتجلى مشهد الطفل البريء، الذي يعيش حلمه الصغير غافلاً عما يدور حوله. حيث يبرز التناقض الحاد بين براءة الطفل وصفاء علمه الداخلي وبين واقع المصاب الثقيل، مما يعمق الإحساس بالحزن. والشاعر يتمنى لو أن الطفل يدرك حقيقة المأساة ليضيف إدراكه ألماً جديداً إلى قلوب المحيطين به، فتبدو هذه الأمنية مزيجاً من الرغبة في مشاركته الشعور، والخوف من أن تنقل برأته بحزن الحياة. هذه البراءة، على نقائها، تثير ألماً أشد، إذ تغدو رمزاً لجهل العاجز الذي يواجه مصيراً لا يعيه.

وفي ختام النص، يستدعي الشاعر صورة النبي صلى الله عليه وسلم، في قوله: "ولكلّ من حُرّم الأبوة أسوةٌ / جلى يمثله الرسول الأعظم". هذه الإشارة ليست مجرد عزاء، بل هي استنهاض للنفوس لكي تتعايش مع المصاب في ضوء القدوة العظمى، حيث يجد الإنسان في صبر الرسول صلى الله عليه وسلم سراجاً يهدي النفس لتتحمل عواصف القدر.

وفي قصيدته "البلبل الأسير"<sup>(28)</sup> يقف الشاعر إزاء بلبل عذب الصوت متملياً جماله، ومتأملاً انسجامه التام مع الطبيعة من حوله، ثم يتحول الشاعر عن هذه المتعة التي لم تدم طويلاً إلى مشهد قاتم أودع فيه الطائر قفصاً صغيراً حتى أزهقت روحه غمماً، وهو تحول من الحرية والحياة إلى القيد والموت؛ مما يبرز جانباً فلسفياً يربط بين التأمل والوجدان، ويمكن قراءة المشهد على أنه إسقاط من الشاعر على تجربة خاضها وقد حاصرته قيود الحياة فمنعته من الانطلاق، وحجبت إبداعه الشعري، لاسيما وهو يصف البلبل بشاعر الطير، يقول في مطلع هذه القصيدة:

وثمارٌ وجدولٌ يتشئ

بجواري خميلة ذات ظلٍ



أو مبيت فيملاً الجوالحناً

ألف الطير أيكها لمقيلٍ



ثم أسهب في وصف جمال الطائر وصوته العذب حتى لحظة اغتيال هذا الجمال حين أودع في قفص  
قضى فيه حزنا وهو يتوق إلى الحرية، يقول في ختامها:

ذات يوم رأيتهُ وهو مُلقَى      جتُّ في الطريقِ قد ماتَ حُزناً



أجهزَ الحزنُ والقنوطُ عليه      هكذا اليأسُ يقتلُ النفسَ حُزناً



لقد تضافرت بواعث الحزن في ديوان (البلبل الأسير) فأنتجت شعراً متقد العاطفة، وشاعراً مرهف  
الحس عميق التجربة، تأصل الحزن في روحه منذ طفولته حين فقد والده، ولم يمكث عند والدته  
طويلاً حتى أهمته دواعي العلم فاستقر به المقام ردهاً من الزمن في مدرسة للأيتام، وعانى شدة الفاقة  
والثقل الدائم طلباً للرزق، ولما علت سنه وأصبح أحوج ما يكون إلى الطمأنينة والرعاية، مُني بفقد  
بعض أبنائه وأحفاده، وكان قبل ذلك حين تشكّل وعيه وشب عن الطوق، امتلأت نفسه بقضايا أمته  
المكلومة.

## الفصل الثاني: آليات التعبير عن الحزن في ديوان البلبل الأسير.

### 1- لغة الحزن في الديوان:

اتسمت اللغة في الديوان بالسهولة والقرب، والنأي عن التّكلف والتعقيد، فهي قريبة المأخذ لا يجد  
قارئها عنثاً في فهمها واستبطان معانيها، فضلاً عن اتصالها بمعجم تراثي يقوم على جزالة اللفظ وقوة  
الجرس، وإلى ذلك أشار الدكتور المطري بأن لغة الشاعر تذكره "بشعراء العصر العباسي، كما أنها  
شديدة الصلة بلغة الإحيائيين في مطلع العصر الحديث، كالبارودي وشوقي وابن عثيمين"<sup>(29)</sup>.

إنّ الأحداث الكبرى التي ابتلي بها العالم الإسلامي فرضت على الشاعر استخدام لغة جزلة تتسم  
بالإيقاع الداخلي المساقق لانفعالاته، حيث تبدت جزالة الألفاظ المحملة بالشجن وتقل المعاناة في  
الموضوعات المتصلة بالبواعث السياسية، وجنحت في مواطن متعددة إلى لغة ساخطة، وحماسة متدفقة.  
فمن أمثلة ذلك قوله في قصيدة بعنوان "شكوى إلى الله"<sup>(30)</sup>:

تَدَاعَتِ الأُمَمُ الأخرى تَطيفُ بنا      نحنُ الطَّعامُ وهُم من حَوْلنا زُمُرُ



حُماتها في دُنا الأحلام غارقةٌ      تَدَعُو العَدُو صديقاً بالوفاء جَدْرُ



(29) النزعة الإنسانية في شعر سعد العوفي الرؤبة والتشكيل الفني، عبدالرحمن دخيل ربه المطرفي، ص: 130.

(30) ديوان البلبل الأسير، ص: 18.

يُحَدِّدُ الخَطُوءَ فِي خُبْثٍ وَيَحْتَكِرُ

ذَاكَ الصَّدِيقُ يُدَجِّنُهُمْ لِعَايَتِهِ



فَالأَرْضُ تُصَغَّرُ وَالطَّغْيَانُ يَنْتَشِرُ

غَرَّتَانِ يَسْتَلْبُ الأوطَانَ فِي نَهْمٍ



إلى أن يقول:

كَأَنَّ لَمْ تُقْرَأِ الآيَاتُ وَالسُّورُ

تَفْرُقُوا نَحْلًا فِي ظِلِّهِ هَمَلًا



مَا عَاشَ عَبْدٌ بِسَيْفِ العِلْجِ يَسْتَتِرُ

دُسْتُورُهُ غَمَزَةٌ مِنْ عَيْنِ سَيِّدِهِ



وتتغى بعض القصائد التي امتازت بطابع نقدي حاد، التعبير عن استياء الشاعر من حالة التشرذم والتمزق التي يعيشها أبناء أمته، فضلاً عن رغبته في إيقاظ الوعي واستنهاض الهمم، فمن ذلك قصيدة بعنوان (حتى النمل يزود عن وطنه) <sup>(31)</sup> يقول فيها:

تُفْضَلُ هِدَاةٌ تُتْلَى بِقَتْلِ

عَجِبْتُ لِأُمَّةٍ كَالنَّمْلِ عِدَاً



لِيُسَلَبَ حَقَّهَا وَيَكْفَى نَذْلُ

تُظَنُّ هِدْوَةً عَاصِفَةٍ سَلَامًا



أُذِلَّتْ لِلْعَدُوِّ المُسْتَجِلُّ

تُهْرَوُلُ نَحْوِ هَاوِيَةٍ خُطَاهَا



إلى أن يقول:

وَأَكْفَأُ مِنْكَ فِي صَدْرِ وَبَدَلِ

هَلِ الحِشْرَاتُ أَرَبَطُ مِنْكَ جَاشَأً



إنَّ المتأمل في حقول المعجم الدلالي للبواعث السياسية يجد لغة غائرة في الحزن والغضب، جمعت بين البكاء والمقاومة في تصويرها للأحداث الدموية، وتوبيخ أبناء الأمة على تقاعسهم وإمعانهم في الخذلان. لقد أسهمت دلالات الموت والنار والتفريغ في إبراز مقاصد الشاعر، وإظهار غلبة المد العاطفي عليه، ففي قصيدة "سوريا" <sup>(32)</sup> على سبيل المثال نجد أنَّ معجم الحزن تشكل في الألفاظ التالية: بكى- الدمع- يكفكف - يبث - حزنًا-شكى-بأس-المظالم-تكلى- المحنة- لصوص-أشعل-نيران-

(31) ديوان البلبل الأسير، ص7.

(32) السابق، ص58.

الشقاء- الخطب- بلا أمل- صرخت- قُلت- حر- العزم- الإباء- البسالة- هبّت- قاوم- مستبد.

وقد يتخفف الشاعر من هذه اللغة الجزلة حين معالجته للموضوعات الاجتماعية التي تتناول سوء الإدارة وتعطيل المصالح في بعض الدوائر الحكومية، فنراه يجنح إلى لغة بسيطة وواضحة تقترب في معجمها من تلك الألفاظ الشائعة في بيئته، من ذلك قوله:

لَدَيْهِ: أَتَنْتَهِي فَوْرًا؟

أَقُولُ لِمَنْ مُعَامِلَتِي



تُكُنُّ الْحُبَّيْثَ وَالْمَكْرَأَ

فَيَرْمِقُنِي بِنَاظِرَةٍ



تَفْضُلُ ضَيْمَنْ مَن مَرًّا

عَسَى وَلَعَلَّ نُنْجِزَهَا



لَهَا مِنْ يَوْمًا عَشْرًا

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: احْسَبْ



وَلَا تَعْجَلْ بِهَا شَهْرًا<sup>(33)</sup>

وَمِثْلَ الْيَوْمِ رَاجِعْنَا



وعلى الوتيرة ذاتها تطالعنا هذه اللغة في قصائد من مثل: طلب نجدة<sup>(34)</sup> - هموم زراعية<sup>(35)</sup> - الروتين واللوائح<sup>(36)</sup>.

وتتردد أصداء الموت والعجز في قصائد الفقد حيث تتحسر لغة الغضب التي شاعت في البواعث السياسية والاجتماعية؛ لتسري في أبياته نزعة روحية تجد الخلاص في التسليم بقضاء الله وقدره، ففي قصيدة "الأمني المحطمة"<sup>(37)</sup> التي يوميء عنوانها عن مظاهر الألم والفجيرة، نجد معجم الحزن تشكّل في الألفاظ التالية: طوي - انهد - كرب - نازل - نسكب - الدمع - حيارى - ذاهلان - مفعوجة - تجهش - الثكلى - حزنها - الآهات - حرقاً - الآتات - يدمي - ضاقت - هذيان - مؤمنان - الإيمان.

ومن الظواهر التي شاعت في مثل هذه القصائد، التصريح باسم الفقيده؛ دلالة على حضوره في الذهن وشدة التعلق به، كالتصريح باسمي حفيدي الشاعر (زياد ومعاذ)<sup>(38)</sup>.

(33) ديوان البلبل الأسير، ص 47.

(34) السابق، ص 20.

(35) السابق، ص 56.

(36) السابق، ص 69.

(37) السابق، ص 78.

(38) ينظر السابق: 80-82.

ويمكن القول إنَّ انكفاء الشاعر على ذاته واتخاذهُ منحى تأملي في ترجمة انفعالاته، أبدى لنا لغة وجدانية غنائية تقف على تخوم معجم رومانسي، من ذلك قصيدته "رسالة إلى القمر"<sup>(39)</sup>:

والأنسُ يَهْلُ مِنْهُ الحِسُّ والنَّظْرُ

ما زالَ فيكَ البهَاءُ الجَمُّ يا قَمْرُ



أتى عَلَيْهَا اكْتِتابٌ ساقَهُ الكَدْرُ

عندي كَمَا كُنْتَ تَجْلُو كُلَّ خَاطِرَةٍ



إن كانَ حُسْنُكَ عَن صُوانٍ يَنْتَشِرُ

مَا جَنَّةُ الخَلْدِ؟ مَا أَسْنَى مَبَاهِجِها؟



وفيها يقول:

لَتَمَلَأَ القَلْبَ مِنْ إِيحائِكَ الصُّورُ

يَهْمُو فُؤادي إلى مَرآكَ مُفرداً



كُلَّ العيونِ وَعيني كَدَّها السَّهْرُ

فَأَنْتَ أَنْتَ سَميري كُلُّما هَجَعْتَ



يَغشى مُحيَاكَ حتى يُنْشِرَ السَّحْرُ

أهْواكَ بَدراً طَوِيلَ المُكْتِ لا كَدْرُ



فالألفاظ التي شاعت في هذه القصيدة من مثل: القمر والسمر والسهر والسحر والغيم، والحب والأشواق والحسن والمتيم وغيرها من الألفاظ، كلها تعدّ من مقومات المعجم الرومانسي الذي أشرت إليه سابقاً.

## 2- الخطابية والتقريرية:

إن تسجيل الوقائع والأحداث، وإلهاب الحس الإسلامي والمجتمعي جعل من الأسلوب الخطابي التقريرية سمة غالبية على قصائد الديوان، فهي "تراثية الصياغة، تقريرية النبرة تحتفل بالإيقاع أكثر مما تحتفل بالصورة وإذا جاءت فهي بيانية جزئية"<sup>(40)</sup>. لقد شاعت مظاهر استخدام الشاعر لأسلوب التكرار الانفعالي؛ إلحاحاً منه على تعزيز أفكاره، واستثارة لعاطفة المتلقي، متكئاً على الاستفهام والنداء والنهي وغيرها من الأساليب الإنشائية، فمن أمثلة ذلك قوله في قصيدة "مجلس الأمن والبوسنة"<sup>(41)</sup>:

(39) السابق، ص 71.

(40) التجربة الشعرية الحديثة في المملكة العربية السعودية، محمد صالح الشنطي، من إصدارات النادي الأدبي بجائل، ط 1، ص 1062.

(41) ديوان البلبل الأسير، ص 54.

أوقدوا حربَ الخليج المنته؟



أين هاتيك الجهود المضنيه؟



هل رأى الأشلاء تحت الأدخنة؟



أين من هبوا فرادى وكنى

لم يهبوا مثلما هبوا هنا

حامى الإنسان من أعدائه

وفي توظيف تكرار النداء نجد دلالات بلاغية وروحية عميقة، تعكس نفسية قلقة ومتأزمة، تعبر عن وطأة المعاناة، وتظهر صدق المشاعر، من ذلك ما نراه في قصيدة "ابتهال"<sup>(42)</sup> التي اكتظت بندايات استغاثة وتضرع، طلباً لرفع البلاء: يا منشئ الكون-يا من يستجار به-يا عالم السر-يا عالم الحال-يا منزل الآي-رباه-يا رب.

وفي قصيدة (أم الأشبال)<sup>(43)</sup> ينزع الشاعر إلى أسلوب وجداني ترفده عاطفة جياشة في مناجاة زوجته صبيحة عملية جراحية أجريت له، فيقول:

بالله كلّ تعلقي وتوكلي



ما يستجد من الزمان المقبل



وما هذا المصاب بأول



إن كان يومي حائن فتجملي



إن حلّ مقدور بما لم تأمل



وبحاسبي وبزرعنا والجدول



غادرتها إلا بليل أليل



يا أم أشبالي وحبي الأول

الصبر أجدر فاصبري وتحملي

لم أكثر يوماً لأيّ مُصيبة حلت

وفيها يقول أيضاً:

يا ربة السكين الذي غادرتُه

فالصبر فيك سجية معهودة

فإذا مررت بحجرة غادرتها

أقري السلام جميعها عني فما

(42) السابق، ص 73.

(43) ديوان البلبل الأسير، ص 83.

في حفظهم ما كنت قبلاً تفعل

وتعهدى الأيتام بعدي وافعلي



نلاحظ في الأبيات السابقة امتداد العاطفة وتناميها من خلال تكرار نداء الزوجة، وتأكيد حضورها في وجدان الشاعر، فهي أم أشباله، وهي ربة سكنه، وهي التي أمدته بفيض من الطمأنينة والدفء العاطفي ثم إن ياء المخاطبة جسدت حضور الزوجة كطرف حيوي ومؤثر، وهو ما أصبغ على النص بعداً وجدانياً خالصاً، فقد تبدت هذه الياءات في مثل قوله: اصبري-تجملي-تأملي-تعهدى-افعلي.

وعطفاً على ما سبق فإنه يمكننا القول إن تلوين الخطاب وكثرة الالتفات، وتتنوع الأساليب الإنشائية كل ذلك يعد من المظاهر الأسلوبية التي تجلت في أغلب نصوص الديوان، وهي مظاهر تتناسب مع الأسلوب الخطابى الذي انتحاه الشاعر.

### 3-استدعاء النصوص الدينية:

يشكل التراث الديني مصدراً مهماً من مصادر العوفي في صياغة تجربته الشعرية، مستعيناً به في الإبانة عن مشاعره ورؤاه؛ إذ لا تكاد تخلو قصيدة من قصائده دون استدعاء للتراث الديني، وقد تجلت هذه الإحالة في ثلاثة مصادر يتقدمها القرآن الكريم ثم الحديث النبوي، وأخيراً استدعاء الشخصيات الإسلامية وسأكتفي بعرض نموذج لكل مصدر وفق الترتيب السابق، بدءاً من القرآن الكريم الذي استحضره الشاعر على مستوى العنوان كقصيدة " لا يضار كاتب ولا شهيد"<sup>(44)</sup>، أو على مستوى النص كقوله:

حيث لا تُبقي لهم من باقيه<sup>(45)</sup>

إنها تُحرقُ دنيا سألتم



واستدعى في إحدى قصائده قول الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام: (يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها)<sup>(46)</sup>. يقول الشاعر:

كقصعةٍ من تريدِ حولها كُتُرُ

صدقت يا سيدي المختار حالتنا



نحنُ الطعامُ وهم من حولنا زمر<sup>(47)</sup>

تداعت الأمم الأخرى تُطيفُ بنا



(44) ديوان البلبل الأسير، ص49.

(45) السابق، ص10.

(46) مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 82/37.

(47) ديوان البلبل الأسير، ص18

وتعد شخصية الرسول -عليه الصلاة والسلام- من أكثر الشخصيات الإسلامية حضوراً في ديوان الشاعر كما في البيت السابق، بالإضافة إلى استدعاء الصحابة وقادة الفتح الإسلامي عبر التاريخ، فمن الأبيات التي جمعت بين النبي-عليه الصلاة والسلام- وبعض صحابته رضوان الله عليهم، قول الشاعر:

لا سعدَ فيهم مَع الهادي يهيبُ بناً  
❖❖❖ ولا أبو بكرٍ ينخأنا ولا عمرُ<sup>(48)</sup>

#### 4- توظيف عناوين القصائد.

يشكل العنوان دوراً مهماً في بناء القصيدة؛ لكونه عتبة أولى تفضي إلى سير أغوار النص، وجذب انتباه القارئ" فهو يقدم لنا معرفة كبرى لضبط انسجام النص وفهم ما غمض منه؛ إذ هو المحور الذي يتوالد ويتسامى ويعيد إنتاج نفسه، وهو الذي يحدد هوية القصيدة، فهو-إن صحت المشابهة- بمثابة الرأس للجسد، والأساس الذي تبنى عليه"<sup>(49)</sup>. وتمثل عتبة العنوان إحدى مظاهر الحزن التي اتشح بها ديوان البلبل الأسير، مما يعكس تأصل الحزن في وجدان الشاعر، ويسهم في تجلية حالته النفسية، ورؤيته للعالم. لقد أفضت عناوينه إلى خلق توازن جمالي، وإشعار المتلقي بتنوع تجربته الشعرية من خلال تراوحها بين المجاز والمباشرة.

والمتتبع لعتبة العنوان في الديوان يجد أن الشاعر وقف على تخوم الرومانسية في قصيدته (رسالة إلى القمر)<sup>(50)</sup> وهو ما يمكن عده استثناء خالف فيه طبيعته الكلاسيكية، حيث حمل العنوان في طياته دلالات شعورية تدل على الحزن والعزلة، وكأن القمر هو الملاذ الأخير للبوح بكل ما يعتل في صدر الشاعر.

وفي قصيدة (البلبل الأسير) التي حملت اسم المجموعة الشعرية يفتح العوفي باباً للتأويل من خلال وصفه لحياة البلبل قبل أسره كرمز للجمال والحرية، ثم معاناته تحت وطأة الكبت والقيود، وعجزه عن تحمل السجن حتى فاضت روحه كآبة وغماً. ويتبدى النزوع إلى العناوين المشحونة بالشحن العاطفي في بعض قصائد الفقد، كقصيدة بعنوان (الانتظار الحزين) حيث ينطوي الانتظار على دلالة الترقب والتوجس والقلق، ووصفه بالحزين أضفى عليه شعوراً بالحسرة وخيبة الأمل، وغير بعيد عن ذلك قصيدة بعنوان (الأماني المحطمة).

فإذا تجاوزنا هذه العناوين إلى القصائد التي تطرقت إلى القضايا الإسلامية نجد نزعة الحزن قد امتزجت بنفس ديني أو عاطفة مشبوبة بالغضب، فقصيدة (شكوى إلى الله) تحمل طابعاً روحياً يبرز

(48) السابق، ص18.

(49) دينامية النص، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، ط1، ص 72.

(50) ديوان البلبل الأسير، ص71.

رغبة الشاعر في اللجوء إلى القوة العليا؛ طلباً للعون، وإظهاراً للضعف والعجز فليس ثمة قدرة على تحمل مشاهد الدمار والبؤس التي اجتاحت الأمة الإسلامية، وليس ثمة جدوى من البوح للبشر أو عقد الآمال عليهم ففداحة الأحداث تستدعي اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى والتضرع إليه لرفع المعاناة ودفع الضرر. وما سبق ينطبق كذلك على قصيدة تحمل عنوان (ابتهال). ومن العناوين ذات الطابع الديني-أيضاً- قصيدة بعنوان (لا يضار كاتب ولا شهيد) وهو اقتباس قرآني كما هو معلوم.

إنّ النبرة الاحتجاجية الغاضبة تجلت بشكل بارز في القصائد ذات البواعث السياسية، فمن ذلك على سبيل المثال قصيدة بعنوان (حتى النمل يزود عن وطنه) فالعنوان يقوم على التقرير وإثارة شعور الحرج لدى القارئ؛ إذ يعتمد على المقارنة بين هذه الكائنات الصغيرة التي يضرب بها المثل في الدفاع ببسالة وتضحية عن مستعمراتها وبين أمة عظيمة تمتلك كل مقومات الدفاع عن وجودها وإرادتها، ولكنها تخاذلت واستسلمت لعدوها دون أدنى مقاومة. لقد استخدم الشاعر في هذا العنوان نبرة خطابية قوية تدعو المجتمع الإسلامي إلى التضحية والتكاتف واستعادة كرامتهم المسلوقة.

وتتجدد هذه النبرة في قصيدة بعنوان (الديمقراطية الرّعاء) حيث يحمل العنوان في طياته نقداً لاذعاً للديمقراطية الأمريكية التي اتخذت من هذا النظام أداة لإثارة الفوضى وذريعة لتحقيق مآربها السياسية بغية فرض هيمنتها على العالم بأسره. وتعلو لغة الاحتجاج والغضب قصائد أخرى من مثل: (مجلس الأمن والبوسنة) و(محرقة النازي الجديدة).

ومن العناوين التي خلقت تناقضاً جمالياً يجمع بين الأدب في صورته المرتبطة بالظهور والانتشار وبين الظل في تجسيده للعزلة والخفاء، قصيدة بعنوان (أدباء الظل) وهي قصيدة تصور صراع الأدباء المبدعين مع الإهمال وعدم التقدير. وفي السياق ذاته يلجأ الشاعر مرة أخرى إلى صياغة هذا التناقض؛ ليعكس مأساة الأدباء والمثقفين، ويوحى باختلال القيم والأولويات التي تتعلق بتقديم الترفيه لاسيما كرة القدم على الثقافة والفكر والأدب، وذلك في قصيدته التي جاءت بعنوان (ظهور آفة وموت ثقافة).

ويمكن القول إنّ ثمة عناوين تتوخى المباشرة والوضوح، والقصدية في الإفصاح عن مضمون النص فكانت بمنأى عن الإيحاء والصنعة؛ بغية تهيئة القارئ للتلقي دون إعمال للذهن حتى تصل الرسالة بأقصر الطرق وأوضحها، وهذه العناوين غالباً ما تكون مرتبطة بقضايا اجتماعية، فمن هذه القصائد على سبيل المثال قصيدة بعنوان (السيارة) و (شكوى ضد الحاسب الآلي) و(هموم زراعية) وغيرها من القصائد التي أولت وضوح الموقف دون موارد أو تلميح عناية فائقة سعياً لإحداث تغيير مباشر.

وخلاصة القول إنّ عتية العنوان لعبت دوراً رئيساً في بلورة نزعة الحزن التي طغت على نصوص الديوان وتعزيز التأثير العاطفي على المتلقي؛ مما جعل منها مفتاحاً لإدراك هذه النزعة، فضلاً عن تمكن الشاعر من تحقيق توازن جمالي في صياغتها من خلال تراوحها بين المباشرة والمجاز.

### الخاتمة

- الحمد لله الذي يسّر وأعان، وبعد: فقد حاول الباحث الإمام بنزعة الحزن في ديوان البلبل الأسير واستكشاف البواعث النفسية والسمات الفنية، وخرج منه بعدة نتائج، من أهمها:
- 1- تعددت بواعث الحزن في ديوان (البلبل الأسير) نتيجة لعوامل سياسية، واجتماعية، وذاتية.
  - 2- أبانت الدراسة عن التصاق الشاعر بمجتمعه ووعيه بمسؤوليته المجتمعية، ورغبته الملحة نحو التغيير والإصلاح.
  - 3- اتسمت لغة الديوان بالسهولة والقرب، فهي قريبة المأخذ لا يجد قارئها عنثاً في فهمها واستبطان معانيها، فضلاً عن اتصالها بمعجم تراثي يقوم على جزالة اللفظ وقوة الجرس.
  - 4- انتهج الشاعر الأسلوب الخطابي في معالجة القضايا السياسية والاجتماعية رغبة منه في توثيق الأحداث، وإيقاظ الوعي، واستنهاض الهمم.
  - 5- يشكل التراث الديني مصدراً مهماً من مصادر تجربة العوفي الشعرية.
  - 6- تمكن الشاعر من تحقيق توازن جمالي في عتبة العنونة؛ إذ تراوحت صياغتها بين المباشرة والمجاز.
- وفي الختام أوصي الباحثين بالنظر في تجربة الشاعر؛ لا سيما في ديوانه (على مدارج الزمن) الذي ظل بمنأى عن دراسة الباحثين، والحمد لله أولاً وآخراً.

### المصادر والمراجع:

- الأدب العربي الحديث، محمد صالح الشنطي، دار الأندلس، ط5.
- التجربة الشعرية الحديثة في المملكة العربية السعودية، محمد صالح الشنطي، من إصدارات النادي الأدبي بحائل، ط1.
- التفسير العلمي للأدب: نحو نظرية علمية جديدة، نبيل راجب، المركز الثقافي الجامعي.
- دراسات في الشعر العربي المعاصر، شوقي ضيف، دار المعارف، ط7.
- دينامية النص، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، ط1.
- ديوان البلبل الأسير، سعد بن سعيد العوفي، ط1، 1440هـ.
- الشعر العربي المعاصر، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، ط3.
- صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب، دار ابن كثير، ط5.
- الكليات، لأبي البقاء الكفوي، اعتنى به: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط2.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، ط6.
- مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1.
- مسيرة على الأشواك، سعد العوفي، 1438هـ.
- المعجم الفلسفي، جميل صليبي، الشركة العالمية للكتاب، 1994م.
- النزعة الإنسانية في شعر سعد العوفي الرؤية والتشكيل الفني، عبدالرحمن دخيل ربه المطرفي، مجلة القراءة والمعرفة، العدد199، 2018م.